

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
الجامعة المستنصرية – كلية الآداب
قسم اللغة العربية

الملاحم النقدية في شروح الشعر الجاهلي

أطروحة تقدّم بها

جعفر علي عاشور الخفاجي

إلى مجلس كلية الآداب في الجامعة المستنصرية
وهي جزء من متطلبات نيل درجة دكتوراه فلسفة في اللغة
العربية وآدابها

بإشراف
الأستاذ المساعد الدكتورة
سنيّة أحمد الجبوري

١٤٢٧ هـ

٢٠٠٦ م .

الخاتمة ونتائج البحث :

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على خير الأنام ، وعلم الهدى ؛
الرسول الأمين ، وآله الأطهار ، وصحبه الكرام ،
وبعد ؛

فقد أنهيت الدراسة ، وأتوقف لأوجز أبرز ما توصلت إليه من نتائج ، وكما
يأتي :

- لقد جاءت نظرات الشراح وملاحظاتهم النقدية وآراؤهم منتشرة ومنتشرة هنا وهناك في شروحهم - بحسب الحاجة إليها في إثبات معنى البيت ، أو على وفق ما تقتضيه طبيعة تلك الكتب ودوافع تأليفها - لم تنتظمها وحدة عضوية ، بحيث تصبح هيكلًا فكرياً متناسقاً قائماً بنفسه ، ذات معيار دقيق ، ومنهجية محكمة ، يصدر عنها في أحكامه ويلتزمها عند تقييمه للآثار التي يتعرض لها بالنقد ، لكن هذا لا يمنع بأية حال من الأحوال من القول بأن في آرائهم موضوعية وعمق وهدس بعيد النظر - وإن اشتط بعضهم في بعض الآراء - يصور لنا مدى النضج الذي بلغه البحث النقدي الأدبي لديهم .

- ولاشك من أن الملامح والقضايا النقدية في شروح الشعراء الجاهلي قد سبقت بجهود نقدية كبيرة ، وقد انتكأت القضايا النقدية في الشروح على جوانب كثيرة فيها ، ومن يتصفح مؤلفاتهم يلمس لمساً واضحاً اثر الكتابات النقدية التي خلفها النقاد المتقدمون فيها ، وقد وقف الشارح في شرحه على كثير من مآثور الأصمعي وأبي عمر بن العلاء ، وأبي عبيدة معمر بن المثنى والخليل وابن قتيبة والمفضل الضبي وابن الأعرابي ، وأمثالهم ، وقد أفاد منهم في جوانب نقدية ذات شان كبير أهمها رواية الأدب والتعريف برجاله ، وجوانب عدّة من النقد اللغوي مما يتصل بمعاني الشعر ونقد ألفاظه ومعانيه ، كما نقل عنهم ملاحظاتهم النقدية في كثير من قضايا النقد كقضية الصدق والكذب ، وقضية السرقات الشعرية ، والموازنات الأدبية والنقد العروضي ، وبعض مواقفهم من الاختيارات الشعرية غير أن هذا لا ينبغي أن يكون

لأصحابنا الشراح جهوداً نقدية متميزة ، وقد تمثلت هذه الجهود بمتابعة القضايا النقدية السابقة أحياناً ، أو يتبنى بعض الآراء النقدية التي تغاير ما اتفقت عليه القضايا النقدية السابقة أحياناً أخرى ، وقد تضيف ملامح وقضايا الشراح النقدية بعض الإضافات التي يستدرك بها ما قد فاتت القضايا النقدية السابقة ، أو يرصد بعض الخصائص الأسلوبية التي تميز بها بعض الشعراء ممن كانت لشعرهم تحت مجهر الشرح والتفسير .

- أوضحت انه على الرغم من غلبة استعمال مصطلحات السرقة وتعدد لها لدى الشراح إلى درجة كبيرة مع تجاهل القضايا التي تفصح عن ذوق الشارح ناقداً إلا إنهم نظروا إليها نظرة مرنة وخصوصاً لدى المتأخرين منهم ، باحثين عن الجودة والإبداع فيها ، لذلك جاءت عرضاً في متون شروحهم من دون تعريف يذكر لها - وعند أغلبهم - ولم يفرّدوا لها أبواباً خاصة بها؛ وهذا يعود إلى طبيعة عملهم ، وغايتهم المنشودة في إبراز المعنى وتوضيحه للقارئ .

- كشف الباحث أنّ الموازنة عند الشراح كانت أغلبها موضوعية محددة الاتجاهات ، فضلاً عن كونها في الأغلب معنوية . وفي وسع القارئ من خلال مقاييس الشراح أن يعرف شيئاً عن مفهومه للشعر الجيد ومنطلقاته أو أسسه النقدية ؛ فالشارح إذا أراد تدعيم اتجاه ما في شرح بيت أو تعزيز فهم لمعنى من المعاني التي يستنبطها من النص استند إلى الأشباه والنظائر من أشعار العرب ، فأورد منها البيت أو البيتين في تأييد أنّ ذلك المعنى الذي تناوله شاعر الاختيار معروف في أشعار العرب ، ومطروق عند شعراء آخرين ، وربما لا يكتفي بإيراد البيت الذي قيل في معنى البيت الذي يشرح فيروم بعيداً إلى شيء من الموازنة أو المفاضلة والمقاربة بين ما قال شاعر الاختيار وما قاله الشاعر الآخر .

- وفي الفصل الثاني " النقد البلاغي " اتسع ميدانه عندهم إذ قدم الشراح جهوداً نقدية ممتازة لا تقل شأناً عن جهود أولئك النقاد الذي تعرفهم ساحة النقد . وتطرقت إلى أنّ النقد العربي لم يعرف الانفصال عن البلاغة ، وهذا مصدر حيويته وتراثه ، وإنّ فنون البلاغة وقيمها البنائية كانت حاضرة في أذهان

الشراح ولم يبتعدوا عنها وهم يتكلمون على قضاياها النقدية ويعالجون ما بين أيديهم من نصوص إبداعية ، ولكن اغلب نقدهم في هذا المنحى كان ذوقيا خاليا من التحليل والتعليل مقتصرًا على الإثارة إلى الجودة أو الرداءة ؛ وذلك لبعدهم الرئيس عن التوجه إلى النقد أو الأدب ، على وفق طبيعة مؤلفاتهم والهدف من تأليفها .

ولقد تفاوتت معالجتهم لفنون البيان ، فكان القدر المعلى في النقد البياني للتشبيه والكناية أكثر من الاستعارة والمجاز ، وندرة النقد الموجه للمجاز خاصة وانعدامه ، وربما يعود ذلك إلى عدم استقرار المصطلح لديهم ، وربما عاد ذلك أيضا إلى أن وضوح الصور الفنية وقوتها اغلب ما يظهر عن طريق التشبيه والاستعارة فضلا عن إن الاستعارة قائمة على التشبيه ومرتبطة به ؛ لأنها تشبيه حذف احد طرفيه مع وجه الشبه وأداته .

ويظهر أن شراح الشعر الجاهلي لم يتعرضوا لدراسة اغلب فنون البديع ، إلا أنهم رصدوا الشواهد التطبيقية على الفنون البديعة التي شعر الشراح باستقرار مفهومها .

وبدا من كلام الشراح عن التكرار شأنهم شأن النقاد العرب القدامى يمكن أن يوصف بالقلة وبضالة الوقفة النقدية وانحسارها إلا في مواقف قليلة ، فكان حديثهم عنه عابرا والقدامى عذرهم في ذلك ؛ لان ظاهرة التكرار لم تشع آنذاك شيوعه في هذا العصر .

- كانت شروح المرزوقي والبطلبيوسي التبريزي أوفى الشروح مادة فقد حوت من القضايا النقد الأدبي والنقد البلاغي والنقد المعنوي ما شكل الجزء الأكبر من الأطروحة ؛ يدفعهم في ذلك كله ذوقهم النقدي وحسهم الفني .

- وقد طغى صوت المرزوقي النقدي واضحا وبدا بلاغيا وناقدا يحكم ذوقه الذي صقلته المعرفة ، وربما أفاض في التعليل إفاضة ناجمة عن الحرص على الكشف عن المعنى من اجل دعم إشاراته .

- ودرس الفصل الثالث جهود الشراح في التأويل ورواية الشعر ، حيث تبين اهتمام ثلة منهم بهذا الجانب ، والتزموا فيه منهجا دقيقا ، فقد بحث الشراح

قضية التأويل ورواية الشعر بأشكال ثلاثة ، أولها تأويل أو رواية مجردة ،
وثانيها تأويل أو رواية مع ترجيح ، وثالثها تأويل أو رواية مع ترجيح
وتعليل ، وكان هذا القسم عند الشارح نقطة وهاجّة ومشرفة في مجمل نقده ،
إذ كان الشارح يوجه تأويله أو روايته ويعلل لها وفق ذوقه الفني وما عرفه من
مذهب الشاعر وطريقته في القول ، وبعد ذلك فقهه في أسرار العربية
وأغوارها .

إن هذا المنحى النقدي كان جزءاً مهماً من جهود الشارح النقدية ،
حاولوا فيه إن يكملوا ما بدأه العلماء الرواة قبلهم واستمروا عليه ، فزادوا
وأوضحوا أو ابدوا القول بالمثل ، كما كانت مقاييس هذا الفصل هي مقاييسهم
في مجمل نقدهم كالثقافة اللغوية والأدبية والعروضية والذوق السليم واصلته
الموضوعية في إصدار الأحكام .

ومن الشراح من وجدت في منهجه في الشرح وتحليل النصوص بذوراً
لبعض المناهج الحديثة ، فعلى سبيل المثال اعتمادهم التحليل الأسلوبي ،
والمنهج الداخلي والخارجي في تحليل النصوص ، ولعلّ هذه سبيل مناهج
التحليل في العصر الحديث ، فتارة يحللون النص من داخله مقطوعاً عن كل
ما يحيط به من الخارج ، وتارة يعتمدون ظروفه الخارجية ليتوصلوا إلى فهم
النص ، ولعلّ هذا ما كان يعتمد المرزوقي في الأول . والتبريزي بعينه في
الثاني في تحليلاتهم لبعض النصوص .

- وفي الفصل الرابع أوضحت سعي الشراح إلى الكشف عن الأخطاء والعيوب
التي وقع فيها الشعراء ، فهي عملية ضرورية ، لأنّ تشخيص العيب والإرشاد
إلى الصواب قضية تتصل بالنص الشعري نفسه في خطوته من لدن الشارح
لتقويمه ، وقد بدا من نقد الشارح للشعراء أنّه يعتمد اعتماداً كلياً على نقد
العلماء الرواة بعد أن وصلت إليه وحفظها إلى جانب رأيه الشخصي ، ومن
الشراح من لا يتشدّد على الشعراء كثيراً في نقده ، بل كان رقيقاً بهم يحاول
أن يجد المسوغات لهم ويجيء بالعلل لدرء أخطائهم .

- وبَيَّنَتْ أَنَّ القصيدَةَ منذ الجاهليَّة تتحى المنحى المثالي من دون أي ترديد وتلهج عليه ، وهو ما يبحث عنه الناقد العربي ويسعى إلى تحقيقه بكل ما أوتي من قوَّة ومناسبة ، فلم يتسامحوا في ذلك وعدّوا هذه الأخطاء مأخذ ينبغي أن يتجنبوها عملاً بالاتجاه الذي اختطّه الأصمعي في تنقية اللغة ، كي يحفظوا للشعر مكانته الرفيعة بوصفه الفن الأدبي المقدّم عندهم .
- ونبّهت على أنّ من الشراح من كان يتعامل مع النقاد بفكر نقدي مستقل ، ولا يعتمد آراءهم تسليماً بها ، بل كان يتناولها بالمناقشة والتحليل والدراسة فيثبت ما وافق معاييرهم ويرد على ما ضعف منها ولم يوافق تلك المعايير ، بل نراه قد استقل بمنهجه في النقد بما حصّله من ذوق سليم واطلاع واسع ودراسة ومران وثقافة عامة وخاصة في شتى ميادين العلوم والفنون .
- أكَّدت أنّ قضية القديم والحديث التي شغلت الدارسين والنقاد العرب وشكّلت ركناً هاماً في الدراسات النقدية واهتماماً واضحاً فلم تأخذ مكانتها عند أصحاب الشروح سوى جملة ملاحظات متناثرة في شرحي الحماسة للمرزوقي والتبريزي .
- وضّحت أنّ قضية اللفظ والمعنى قد شغلت بال النقاد العرب أمداً طويلاً واتجهوا فيها اتجاهات متباينة ، فمنهم من نظر إلى مقومات العمل الأدبي فأرجعه إلى جانب المعنى مغفلاً شأن اللفظ ، وآخرون أرجعوه إلى اللفظ ، ومنهم من ساوى بين اللفظ والمعنى ، وبعض منهم من نظر إلى الألفاظ من جهة دلالتها على معانيها في نظم الكلام ، وأحسب أنّ المرزوقي الشارح ينفرد من بين أقرانه الشراح بتناوله هذه القضية ، وهو من الصنف الأخير من هذا القول ، فهو للفظ والمعنى كما بيّنت مواقفه الكثيرة وعينه شاخصة نحو مقومات النظم ، وهو بهذا المنهج متوافق مع لاحقه عبد القاهر الجرجاني فيما اشتهر فيه وعرف من أنّ بلاغة النص القرآني والنص الشعري أيضاً كائنة في نظمه .
- أكَّدت في أثناء حديثي عن الاختيارات الشعرية أنّ مسألة التعليل للحكم النقدي عند المرزوقي في أثناء شرحه وتعليقاته ظاهرة مشهودة ظهوراً واضحاً

في نقده خصوصاً وهذا الأمر لم يكن مشهوراً بين الشراح الآخرين في أغلب الأحيان ، فقد حاول أن يتجاوز المرحلة التأثرية إلى المرحلة التعليلية ، وحاول أن يضع قواعد وأصولاً للنقد لم تخرج في الغالب عن حدود المنهج الفني .

- ودرس الباحث في الفصل الخامس (النقد العروضي) فاتضح اهتمام الشراح بالعروض بوصفه احدى الركائز التي يقوم عليها الشعر ، فتحدثوا عنه في أثناء شروحاتهم التي توضحه وتبين مسالكه ، ووقفوا إزاء قضايا العروض والقافية وقفة عالم يسعى إلى الكشف عن طبيعة العلاقات العروضية تدل على دقة حسهم النقدي وصفاء تذوقهم وإن لم يبرز فعلهم نقاداً إلا في مواطن ضئيلة تماماً .

- كشف البحث طاقة الشراح العروضية الهائلة التي استوعبت آراء النقاد القدماء ، وأضافت إليها الشيء الكثير ، ومن الممكن أن نجمع آراء ابن جني والنحاس والتبريزي العروضية في سبيل صنع كتاب يحوي خلاصة تجربتهم مع علم العروض والقافية .

- وتعرض الشراح لقضية مهمة في النقد وهي الضرورة الشعرية فحددوا موقفهم منها وبحثوا بحثاً شاملاً أبان عن سعة اطلاعهم على قضاياها ومشاكلها وعدوها لمحات جمالية وإضاءات تعبيرية بعد أن درسوها بأسلوبهم الخاص يمكن أن تكسب النص الأدبي نوقاً وجمالاً .

- وليس من شك في أن الملامح والقضايا النقدية التي وقف عندها الشراح وقد ضمنتها فصول هذه الأطروحة تدل على أهمية هذا النقد الذي طالما أغفله الدارسون ، ولأهمية هذا النقد عمد الباحث إلى الإكثار من النصوص النقدية بعد أن جمعها من أثناء الشروح ، ليستدل بها على آرائهم النقدية ، ويرى الباحث - بعد هذا - أن شارح الشعر الجاهلي لم يكن شخصية لغوية بحتة كما شاع ذلك في الأوساط العلمية ، بل كان موسوعياً متعدد الاتجاهات ، وأضافت موسوعيته هذه جديداً إلى الفكر العربي ،

وأسهمت إسهاماً كبيراً في تطور الحركة الأدبية والنقدية في العصور العباسية
وإثرائها .

وبعد هذه الصحبة الطويلة مع شروح الشعر الجاهلي برزت للباحث موضوعات
تستحق أن يقف عندها دارسو الأدب ، وأتمنى أن تلقى صداها في بحوثهم ودراساتهم
في المستقبل - إن شاء الله - ، ومن هذه الموضوعات : (الدرس البلاغي في
شروح الشعر الجاهلي) ، و (المرزوقي بلاغياً) ، و (الجهود العروضية لشراح
الشعر الجاهلي) ، وتحقيق مخطوطتي ديوان الحماسة بشرح أبي العلاء المعري
ونشرهما ، وديوان المفضليات بشرح المرزوقي ، ويبدو أن هذه الشخصية لم تكن
محفوفة في عالم الدراسات والبحوث ، لذا أتمنى أن تأخذ هذه الموضوعات طريقها
إلى عالم البحوث وهي من دون شك مادة غنية جدية بالدرس والبحث .
وختاماً نحمد الله ونشكره على جزيل نعمائه ، وعظيم آلائه ، وعلى تيسيره
أمر الفراغ من إعداد هذه الأطروحة ، فهو نعم المولى ونعم النصير ، ومنه العون
والسداد ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين . . .

الباحث